يوم المظالم في تاريخ الاسلام

بقلم الاستاذ يوسف يعقوب مسكوني

كان يوم المظالم في تاريخ العرب والاسلام من اروع الايام واعمها في نفوس المعتدين والمظلومين والخلفاء والملوك والامراء والحكام والقضاة، فقد كان لهذا اليوم مشهده الرائع وموقفه الرهيب اذ فيه يقتص المظلوم من الظالم وينتقم الحاكم العادل من المعتدين للمظلوم وقد اوجد هذا اليوم ملوك الازمنة القديمة منذ فجر التاريخ حتى العصور المتأخرة. اما في عهد تاريخ العرب والاسلام فقد اكتسب صبغته اللائقة به وطبقت فيه احكام القرآن ونظم الشرع التي اوجدها الدين الاسلامي الحنيف. وديوان المظالم من اشهر الدواوين التي يقام فيها العدل والانصاف. وقد افرد المرحوم جرجي زيدان فصلا رائعاً عن ديوان المظالم في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي قال :- «هو من توابع القضاء ويشبه ما نسميه اليوم مجلس الاستئناف والغرض فيه استماع ظلامات الناس من القضاة اوغيرهم. وكان العرب في جاهليتهم يلتفتون الى هذا الامر فيتحالفون على رد المظالم كما فعلت قريش قبيل الاسلام وذلك انهم لما تعدد فيهم الزعماء وكثر التغالب والتجاذب اجتمعت بطونهم وعقدوا حلفا على رد المظالم وانصاف المظلوم من الظالم وهو حلف الفضول المشهور الذي عقد في مكة والرسول (ص) ابن خمس وعشرين سنة وهو ان لا يظلم احد في مكة الا انصفوه واخذوا له حقه. ولم يجلس للمظالم احد من الخلفاء الاربعة لان الناس في الصدر الاول كانوا بين من يقوده التناصف الى الحق او يزجره الوعظ عن الظلم الاعلياً [ع] فانه احتاج الى النظر في المظالم. ولم تكن في الحقيقة كما صارت اليه بعد ثذ على انه لم يفرد لسماع الظلامات يوما معيناً او ساعة معينة وانما كان اذا جاءه متظلم انصفه. ثم افردوا يوما خاصا للنظر في اقوال المتظلمين وتصفح قصصهم واول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان لكنه كان اذا وقف منها على مشكل واحتاج فيه الى حكم رده الى قاضيه ابن ادريس الازدي. فكان ابن ادريس هو المباشر وعبد الملك الآمر واول من ندب نفسه لمباشرة المظالم عمر بن عبد العزيز الشهير. ثم اهملت بعده الى ايام الدولة العباسية فجلس

عن البيهقي في ترجمة احمد مسكويه فلما راجعتها في ترجمة بن الجاثليق رأيتها متغيرة جداً فراجعها في البيهقي طبعة الشام [ص ٤٤].

[١٠] قال في ترجمة احمد بن يوسف [ص ٦٩] [وكانت له قدرة على المشجرات فيما ينظمه] ناقلا هذه العبارة عن الدرر الكامنة والموجود فيها [على المسخرات] اي القصائد التي تستعمل للهزء والسخرية واين هذا من ذاك.

(١١) نقل في (ص ٧٣) جملا عن تتمة صوان الحكمة ومنها (قليل الراح صديق الروح وكثيرها عدو الجسم) ولم توجد هذه الجملة في هذا الكتاب بترجمة اسحق بن حنين ولا ادري من اين جاء بها كما لا نتفق مع المؤلف في عد اسحاق هذا عربيا صميماً ولا اعرف دليل المؤلف في هذا الجزم الذي نص على خلافه.

(١٢) قال في (ص ٢٣٥) ناقلاً عن معجم الاطباء عبيد الله بن علنده الاموي وما في المعجم عن التكملة عبيدالله بن علنده الاموي مولاهم فاسقط الاستاذ الخليلي كلمة مولاهم فاصبح عربياً اموياً وهو غير عربي من اهالي سرقسطة الاندلسية والغريب ايضاً انه قال في ترجمة (ص ٢٣٦) بلغ سبعاً وسبعين ولكن في المعجم والتكملة انه بلغ سبعاً وتسعين لا سبعين كما اشتبه المؤلف.

(١٣) نرى في (ص ٢٤٠) كلمة الدحوار في ترجمة هذا الاديب وفي آخرها يقول ابن الدحوار وكان الاحرى الجزم بالكلمة وهل هي لقب له او لاحد آبائه.

(١٤) قال في (ص ٢٤٦) في ترجمة الباجي (ولم يذكر له ابن ابي اصيبعة شعراً ولا ولادة ولا وفاة) وعليه نقول للاستاذ الخليلي اذا كان كذلك فلماذا اهتممت بترجمته مع انه لا اثر له في الشعر والنثر واى فائدة لترجمة امثال هذا الذي كثر في كتاب الاستاذ.

هذا قليل من كثير مما في الكتاب من الهفوات نتمنى تداركها فيما يأتي في الجزء الآخر والله ولي التوفيق.

بغداد — عبد الحميد الرشيدي

لها خلفاء بني العباس واول من جلس منهم المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم المأمون وآخر من تولاها منهم المهتدي بالله محمد بن الواثق .

وكانوا يسمعون ظلامات الناس وينصفونهم وفيهم من يتظلم من الولاة او من العمال او من جباة الاموال او من كتاب الدواوين في تقصيرهم بشيء من رواتبهم او من احد ابناء الخلفاء أو الامراء او نحوهم من اهل الوجاهة ممن يغتصبون الاموال او الضياع او من القضاة لانهم لم ينصفوهم في احكامهم او من اي انسان كبيرا كان او صغيرا فهو اوسع دائرة من مجلس الاستئناف واطول باعا واشد وقعا واسرع نفوذاً ومن امثلة ما رددده من المظالم على هذه الصور ان عمر بن عبد العزيز خرج ذات يوم الى الصلاة فصادفه رجل من اليمن فاستغاثه فقال ما ظلامتك ؟ فقال : غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي فقال يا مراجم ائتني بدفتر الصوافي فوجد فيه اصفى عبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان . فقال اخرجها من الدفتر وليكتب برد ضيعته اليه ويطلق له ضعف نفقته . وحكي عن المأمون انه كان يجلس للمظالم يوم الاحد فنهض ذات يوم من مجلس نظره فلقيته امرأة في ثياب رثة وتظلمت اليه في ابنه العباس فاوقفه بجانبها ورد ظلامتها برد ضياعها عليها . وبعد المهتدي لم يجلس الخلفاء العباسيون للمظالم على انهم كثيراً ما يعهدون بهذا المنصب الى وزرائهم كما فعل المأمون ليحيى بن اكثم او المعتصم لاحمد ابن ابي دؤاد فلما غلب السلاطين على بني العباس صار النظر في المظالم الى السلاطين . اما في مصر فاول من نظر في المظالم احمد بن طولون لما استقل بحكم مصر سنة ٢٥٧ هـ فكان يجلس لذلك يومين في الاسبوع . ثم صار خلفاؤه يولون من يقوم بها دونهم حتى فتح الفاطميون مصر وبنوا مدينة القاهرة فاهتموا في امر المظالم . وجلس اولا قائدهم جوهر فاتح مصر وكان يوقع على قصص المتظلمين بيده . ثم صار الخلفاء بعده يعهدون بذلك الى قاضي القضاة او الى بعض عظماء الدولة . فلما ضعف امر الفاطميين واستبد وزراؤهم في الحكم صارت المظالم الى الوزراء واشهرهم في ذلك امير الجيوش فقد كان يجلس لسظالم بنفسه واقتدى به من جاء بعده وكانوا يجعلون بباب الديوان منادياً ينادي : يا ارباب الظلامات : فيحضرون اليه فيأمر بانصافهم . ولما افضت الحكومة في مصر الى السلاطين الايوبيين بنوا دارا للنظر في المظالم سموها دار العدل وكان قد سبقهم الى بناء مثل هذه الدار في دمشق الملك العادل نور الدين زنكي وكان الايوبيون يجلسون في دار العدل في المظالم وجرى سلاطين المماليك بعدهم على ذلك . وكانت لهم عنايه كبرى في انصاف الناس وكانوا يحترمون مجلسهم للمظالم فلا يقعدون فيه على تخت الملك ولكنهم يجلسون على كرسي بجانبه حتى تلحق ارجلهم للارض فاذا جلس السلطان على ذلك الكرسي يجلس قضاة القضاة من المذاهب الاربعة على يمينه ووكيل بيت المال وغيرهم من ارباب الوظائف والحرس والخاصة بين يديه وفيهم من يقرأ الظلامات للسلطان فيراجع القضاة او امراء العسكر فيما يرى مراجعتهم فيه ثم يمضي بما يراه وكان لسلاطين المسلمين وامرائهم عنايه كبرى في النظر في مظالم الرعية وكانوا يبذلون الجهد في رفعها ولو كان النظلم منهم او من اولادهم وامثلة هذه الحوادث كثيرة في تاريخ الاسلام . فتعود الناس ان يرفعوا شكواهم الى خلفائهم وسلاطينهم في أيام معينة وصاروا يحسبون ذلك فرضا واجبا فاذا امسك الخليفة عن النظر في المظالم يوما او بضعة ضجوا وملوا وكان بعض الخلفاء يقسم المظالم الى فروع بعضها للنظر في مظالم الجند وبعضها للنظر في مظالم العمال وبعضها لغير ذلك وقد نقل هذا الاخبار عن الاحكام السلطانيه للماوردي مما جاء فيه ايضا : اذا نظر في المظالم من انتدب لها جعل لنظره يوما معروفا يقصده المتظلمون ويراجعه فيه المتنازعون . ثم قال ايضا ويستكمل مجلس نظره بحضور خمسة اصناف لا يستغني عنهم ولا ينتظم نظره الا بهم احدهم الحماة والاعوان لجذب القوى وتقويم الجري والثاني القضاة والحكام لاستلام ما يثبت عندهم من الحقوق والصنف الثالث الفقهاء ليرجع اليهم فيما اشكل والصنف الرابع الكتاب ليثبتوا ما جرى بين الخصوم والصنف الخامس الشهود ليشهدهم على ما اوجبه من حق وامضاه من حكم فاذا استكمل مجلس المظالم بمن ذكرنا من الاصناف الخمسة شرع حينئذ في نظرها . وجاء في كتاب المنهج المسلوك في سياسة الملوك للشيخ عبد الرحمن عبد الله من علماء القرن السادس الهجري الذي الفه للملك الناصر صلاح الدين بن يوسف الايوبي فصل في الجلوس لكشف المظالم قال : اعلم ان جلوس الملك والفصل في المتنازعين من اعظم قوانين العدل الذي لا يتم السلام الا بمراعاته ولا يتم التناصف الا به وقد كانت ملوك الفرس يرون

المحاكمة بين الشيخية وخصومهم
(٢)

بقلم العلامة الشيخ عبد الكريم رضا

قد تكون العوامل الموجبة لانقسام الفرقة الدينية الواحدة الى فرقتين دينيتين يلعن بعضها بعضاً ويتبرء بعضهم من بعض ناتجة عن اختلاف في الآراء والافكار والاجتهادات وقد تكون ناتجة عن المخادعة وحب الرياسة والسيطرة على العامة ولابد من الاشارة الى آراء ومعتقدات الشيخية وخصومهم ليكتشف القارئ من ذلك الاسباب التي ادت الى هذه التفرقة التي استمرت الى يومنا هذا .

ان العلوم الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة هي علم الاخلاق وعلم الفقه وعلم العقائد ولاخلاف بين الشيخية وخصومهم في علم الاخلاق وكذا لاخلاف بينهم في علم الفقه فان طريقة فقهائهم الى معرفة الفروع الفقهية العملية كطريقة سائر فقهاء الشيعة الامامية ويظهر ان طريقة شيخ احمد زين الدين في استنباط الاحكام الشرعية الفرعية هي طريقة الاصوليين من الشيعة كما يظهر ان طريقة محمد كريم خان هي طريقة الاخباريين من الشيعة المقتصرين على الروايات المنصوصة ولايريدون تكثير الفروع باستنباطها من عمومات الكتاب والسنة اومن الاصول والقواعد العامة واما علم العقائد فهو مورد الخصومة وربما يتضح للقارئ مما سنذكره انه لاخلاف بينهم ايضا في المعتقدات يوجد في كلتا الطائفتين من الشيخية وخصومهم صنفان من اهل العلم احدهما صنف الفلاسفة الاسلاميين الذين يحاولون ان يوصلوا بين الدين والفلسفة والصنف الثاني اهل الظاهر وهم اعداء الفلاسفة .

ان الفلاسفة من كلا الفريقين تتقارب آراؤهم ومعتقداتهم فالاعتقاد بالسماء والعالم والعرش والكرسي والعقول والارواح والملائكة والجن والشياطين والحقيقة المحمدية وولاية اهل البيت والمعراج والمعاد وصفات الله واسمائه بمعانيها التي تقصدها الفلاسفة مشترك بين فلاسفة الشيخية وفلاسفة خصومهم ولاتوجد بين الفلاسفة خلافات الا في بعض الفروع الفلسفية التي لاعلاقة لها بالدين مثل اصالة الوجود او الماهية واكثر خلافات شيخ احمد

ذلك من قواعد الملك . ثم قال عن عمر بن عبدالعزيز انه تولاها بنفسه لما زاد ظلم الولاة وجور النواب فجعل يراعي السنن العادلة حتى قيل له وهو يشدد عليهم انا نخاف عليك العواقب من ردها فقال مامن يوم اخافه واتقيه غير يوم القيامة الا وقيته وقال عن الملك نور الدين بن الزنكي انه قد بنى له داراً في قلعة دمشق تحاذيها دار العدل حيث كان يجلس فيها فيتصفح قصص المظلومين ويفصل بين امر المتنازعين ولديه الفقهاء وائمة الدين ثم قال ايضا وحدثني الفقيه ابو طاهر ابراهيم بن الحصين الحموي قال كنت عند الملك العادل محمود بن الزنكي في دار العدل بدمشق وقد عرض عليه قصص خراج املاك اهل الشام فجعل ينظر فيها فلما انتهى الى ذكر خراج معرة النعمان قال : اني قد عزمت على انتزاع املاك اهل المعرة من ايديهم فقد رفع الي اهل الخبرة من الثقات ان جميع اهل المعرة يتعرضون للشهادة فيشهد احدهم لصاحبه في دعوي ملك حتى يشهد ذلك معه في دعوى اخرى وان الملك الذي بايديهم انما حصل لهم بهذه الطريقة قال فقلت ايها الملك ان الله تعالى اوجب اوجب عليك العدل في رعيتك والنظر بالكشف والتوقف في الأمور اذا رفعت اليك فان أهل المعرة خلق كثير يستحيل تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع الاملاك من اربابها بمجرد هذا القول لايجوز . قال ثم فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال امسكها عليهم ثم كشف عنها بعد ذلك والتفت الى كاتبه وقال اكتب كتابا الى القاضي والوالي في المعرة ليمسك جميع الملك الذي في ايدي اهله حتى يستدعي البينة . فكتب ووضع بين يديه ليضع علاماته فيه واذا صبي على شاطئ النهر يغني شعرا : -

اعدلوا ما دام امركمو نافذا في النفع والضرر .
واحفظوا ايام دولتكم انكم منها على خطر
انما الدنيا وزينتها طيب مايبقى من الاثر

فلما سمع الملك ذلك تغير لونه وهملت عيناه بالدموع ثم تناول الكتاب فخرقه وجعل يستغفر الله جميع ذلك اليوم .

بغداد — يوسف يعقوب متكوبي .